تقاليد بالية

فتح خزانته، ووقف متحيرًا ماذا يرتدي اليوم للذهاب إلى عمله؟ ولمح في ركن خزانته زجاجة عطر شبه فارغة. وما أن لمسها واشتم بقايا عطرها حتى دبت فيه قشعريرة أعادته للحياة، واسترجع شريطًا من الذكريات مرت عليها سنوات.

فقد تلاقت يومًا أعينهما في الزحام. وصارت هي هدية السماء له في تلك الأيام. لا يدري كيف تعلق قلبه بطرف حبها؟ ولا كيف هامت روحه في فلك مشاعرها؟ ولكنه تيقن أنها حبه الأكيد الذي نضجت معه كل أحاسيسه.

فقد حاول مرارًا وتكرارًا تكذيب نبضات قلبه، بالبعاد تارة والعزلة عن أشكال الحياة تارة أخرى. ولكنه في كل مرة كان يرجع إليها بكل أشواق اللهفة وحنين الاحتياج.

«سأعلن الحرب لاقتحام حصونك، وسأنشر جيوشي في أرجاء ربوعك. ووحدي أنا من سيضرب بخيامه على أرضك، ويثبت علم النصر في أعالي هامتك».

هكـذا صارحها ذات يوم.. فلن أبالي بتقاليـد بالية وعادات عقيمة، لن أخسر حبي بسـبب بضعة معتقدات عفـا عليها الزمن، وفاح عفن رائحتها وسدت أنوف العاقلين. فكم من قلوب تمزقت، وأرواح تبعثرت، ومشاعر وأدت جراء خزعبلات تناقلتها الأجيال وحكمت علينا بالموت البطئ؟

ولكنها أبت أن تصغي لنداءات الحب، ورفضت أن تضعنا تحت رحمة فكي الرحى، وأن نكون سويًا مثار سخرية أصحاب العقول المتحجرة.

فأنا الشاب الثلاثيني ذو الأيام الربيعية، وهي سيدة أربعينية تساقطت أوراق شـبابها في حياة سـابقة فاشـلة. حاولت أن أبث فيها الشـجاعة؛ لنتحدى العالم بأكمله، ونحقق نصرًا لحبنا، ولا نلتفت لتخاريف الناس التي ستلاحق الكل شئنا أم أبينا..

وكانت تلك ليلتنا الأخيرة التي أهدتني فيها زجاجة العطر، ولمعة عينيها تعزينـي على حب تعثرت به قلوبنا صدفـة. وكان حضن كفيها هي الحرارة الباقية في قلبي حتى الآن، فقد كانت أخر وسيلة اتصال لنا في هذا العالم..

ورحلت حبيبتي..

لملمت بقايا وجدانها من قيعان روحي، وأغلقت نوافذ قلبها عني.. وأسدلت سـتائر الحزن على قصة عشـق لم تكتمل.. وها أنا بفضل حبها خارج البلاد أقطف ثمار نجاح عملي. ولكني أردم بنيان حبي الوحيد بسـبب ألسنة المجتمع الخرساء، فأنا لا امتلك سوى بقايا شذاك العالقة بكفي وكلمات هامسة في ليلة باردة.

كلما اجتاحني الحنين استنشق كفّي واسترجع كلماتك، لعل روحي تلتمس بعضًا من الهدوء، ولن تهدأ أبدًا..